قنوات مدينة سبار بين المصادر المسمارية والمسوحات الأثرية

م. د. ياسر جابر خليل
جامعة الموصل – كلية الآثار

الملخص

يتناول البحث قنوات مدينة سبار (أبو حبة)، المتفرعة عن الجانب الأيسر من نهر الفرات، كما تخبرنا عن ذلك النصوص المسمارية من العصر البابلي القديم. وتروي هذه القنوات الأراضي الزراعية والبساتين والحقول التي تمرّ بجوارها أو بالقرب منها، نزولاً إلى المدن التأريخية في منطقة السهل الغريني من أرض السواد، في القسم الجنوبي من العراق. وكان وجود قنوات سبار والقنوات الأخرى عاملاً حاسماً في تاريخ تلك المنطقة إبان العصور القديمة، إذ نقلت السكان من حياة الرعي الى حياة الاستقرار والزراعة، والشواهد المسمارية تشير إلى قيام ملوك العراق القديم وحكامه بشق القنوات وحفر الجداول وكريها، واستصلاح الأراضي، وأكدت ذلك الشواهد المتبقية لأكتاف تلك القنوات.

الكلمات المفتاحية: مدينة سبار، النصوص المسمارية، قنوات، الأراضي الزراعية، البابلي القديم.

Irrigation Canal of Sippar City between Cuneiform Sources and Archaeological Surveys

Dr. Yasir Jabir Khalil
University of Mosul- College of Archaeology

Abstract

The research deals with Irrigation Canals of Sippar (Abu Habba) of the east side of the Euphrates. The information came from the Old Babylonian cuneiform texts and Archaeological surveys. These canals irrigate the agriculture area include orchards and fields which pass through or alongside down to the ancient cities located within the alluvial plain in southern Iraq. The existent of these canals was important to encourage migrant people to settle from the early period and change their life from migration to agriculture and settlements. Cuneiform sources illustrate that ancient Iraq's kings dug canals, streams and they clean them regularly and they mentioned it in their date formula. They also reclaimed the land as witnessed by the shoulders of these canals.

Keywords: Sippar city, Cuneiform Texts, Canals, Agricultural Lands, Old Babylonian.

المقدمة

قبل أكثر من أَربعة آلاف سنة، كانت مدينة سبار (تل أبو حبة حالياً)، مزدهرة في العصر المعروف (بالبابلي القديم) "٢٠٠٤-١٥٩٥ ق.م"، ومحاطة بسور ترابي يعانق السماء بعلوه، كما جاء وصفه في إحدى الوثائق المسمارية المعاصرة. واستمر ازدهارها في العصور اللاحقة، ولاسيما البابلي الحديث (٦٢٦-٥٣٩ ق.م)، كما تدل على ذلك مبانيها المتبقية، مثل: زقورتها، ومعابدها، وبيوتها السكنية، ومكتباتها المشهورة، التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية العراقية في أواخر القرن الماضي. ويعزى هذا الازدهار إلى قنواتها الاروائية المتفرعة عن نهر الفرات الذي لا يبعد مجراه عن المدينة سوى سبعة كيلومترات.

المدينة:

سبار هي إحدى المدن الرئيسة في العراق القديم، والتي جاء ذكرها في وثيقة تأريخية تعرف عند المختصين باسم (ثبت (جداول) الملوك السومرية) التي اصطلح عليها باسم الملكية (NAM – LUGAL) بأن سبار المدينة الرابعة التي هبطت فيها الملكية تباعاً من السماء[١]. إذ أعطتها تلك المواصفات القدسية أولاً والقدم ثانياً.

تقع مدينة سبار على نحو ثلاثة وأربعين كيلومتراً باتجاه جنوب غربي مدينة بغداد، وبالقرب منها بنحو خمسة كيلو مترات، وباتجاه الجنوب الغربي أيضاً مدينة أثرية أخرى، واسعة المساحة، تعد توأماً لها واسمها (الدير) [٢].

والوصول إلى هاتين المدينتين، عبر طريق بغداد – الحلة. وعند تقاطع هذا الطريق، مع المنطقة المعروفة باليوسفية، يمتد عندها طريق مبلط في الجهة اليمنى، وعبر نهر يعرف باليوسفية أيضاً، يصل المرء إلى مركز ناحية اليوسفية. وبمحاذاة ذلك النهر، فرع عنه يعرف عند المحليين باسم (شيشبار)، وعلى جانب منه المدينة موضوع البحث سبار[٣]. ينظر الشكل (١).

ورد اسم سبار في النصوص المسمارية ($UD.KIB.NUN^{ki}$) وتعني: (المدينة ذات المساحات الكبيرة المشمسة) [٤]. و (Ki) علامة دالة تشير إلى المدينة أو المكان الجغرافي[٥]. وتعرف بقايا المدينة عند السكان المحليين اليوم بتل (أبو حبة). ومن المحتمل أَنّ تسميتها بهذا الاسم، كان بسبب كثرة زراعة الحبوب التي اشتهرت بها المنطقة ، ولغزارة منتجاتها الزراعية، ومنها الحنطة والشعير والذرة، لأن أراضيها صالحة للزراعة وذات خصوبة عالية[٦].

مكانة سبار:

كانت المدينة في فترات ازدهارها، مركزاً لسلالة حاكمة في بلاد الرافدين، لمكانتها الدينية العالية، كونها مكرّسة لتقديس عبادة الإله شمش (الشمس) والآلهة الأخرى، ومركز مجمع للآلهة. ثم أَصبحت مركزاً مهما تعلّم فيه كثير من الكهنة والمتعلمين ، وغدت والمدينة الأولى في نشر العلوم المختلفة[٧].

قنوات مدينة سبار:

كما أشرنا أو ألمحنا آنفاً ، إنّ سبار واقعة على نهر اليوسفية وفرع عنه يعرف بـ(الشيشبار). ومصدره نهر الفرات، الذي لا يزال يسقي الأراضي والحقول والبساتين الواقعة في المدينة الأثرية، والأراضي الواسعة الممتدة حولها. ومن الناحية الجغرافية فإن الأراضي التي يجري عبرها نهر الفرات والجداول والقنوات المتفرعة منه، أكثر ارتفاعاً من حوض نهر دجلة بما

يزيد عن سبعة أمتار، وبهذه الحالة الطوبوغرافية أصبح بأمكان القنوات والجداول والسواقي ايصال المياه إلى الأراضي الواقعة حول مقتربات نهر دجلة أو ان بعضها كان يصب فيه[٨]. ومنها نهر عيسى، ونهر صرصر، الذي يجد المتتبع ذكرهما في المصادر البلدانية العربية. لكن النهر الآخر الذي كان مصدره الفرات أيضاً، هو نهر (ملكا) أو (الملك)، الذي تشير إليه المصادر القديمة والإسلامية. فقد عرف نهر (ملكا) في كتابات العصر البابلي القديم، وهو كثير الضياع، وتتفرع عنه أنهار كثيرة، ومصبه في دجلة اسفل من المدائن بنحو مايقارب من ١٥ كم في الجانب الغربي. وعلى فرع من نهر الملك (ملكا) الذي يسقي الأراضي المحيطة بمدينة تعرف باسم (كوثى) [٩]، وهي المدينة التي جاء ذكرها في النصوص المسمارية ، وفي سفر التكوين من التوراة، والخاص بهجرة سيدنا ابراهيم عليه السلام، من اور الكلدانين إلى حران. ويجد الباحثون في هذا الموضوع ان المعلومات عن نهر كوثى وضياعه كثيرة التفاصيل. إذ جاء ذكر هذا النهر أو فروعه (ملكا) في العهد القديم، كما أسلفنا، وفي المدونات الآشورية باسم (اراختو)[١٠].

ومن الجدير بالذكر أن المدونات المسمارية في العصور القديمة، تشير بوضوح إلى ان عمليات شق القنوات، كانت منذ عصر السومريين، تؤكد على وجود نظام تسنه السلطات الحاكمة، وأساسها الإدارة المنظمة، وفضلاً عما يشرعه الحكام، فإنهم كانوا يشرفون على مثل هذه الأعمال المضنية، الخاصة بتنظيم الزراعة وبأنظمة الري، وحفر القنوات والجداول[١١].

إن أقدم وثيقة مدونة بالمسمارية، توضّح موقع مدينة سبار وعلاقتها بمجاري المياه القريبة منها، وعلاقتها بنهر الفرات والقنوات المتفرعة عنه. هي عبارة عن لوح صغير غير كامل، من الطين، يعود إلى العصر البابلي القديم، عثر عليه في مدينة تعرف باسم (دلبات)[١٢]. الشكل(٢).

يوضح المخطط المرسوم على هذا اللوح، موقع مدينة سبار الواقعة بين مجريين للمياه. والمجرى الشمالي الغربي كما تشير الكتابات المسمارية المدونة على اللوح نفسه، إلى أَنه نهر الفرات. أما المجرى الجنوبي فهو فرع عن نهر الفرات[١٣]. وتسمّى قناة (تابشتم) Tap-pí-iš-tum[١٤].

واللوح محفوظ الآن في المتحف البريطاني، وكشف عنه هرمزد رسام[١٥]. ويحمل الرقم BM. 50644. والملاحظ ان هذا اللوح استخدم بوصفه خارطة توضيحية يستدل بها على موضع مدينة سبار[١٦].

ويتفق شكل المخطط المثبت على اللوح الطيني، مع ما جاءت به مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين[١٧] ، من الاغريق والرومان، مثل زينفون في كتابه : (الصعود Anabasis) في تفاصيل (حملة العشرة آلاف إغريقي، أو ما يعرف بالحملة على فارس)، أثناء ذكره لإحدى

المعارك التي يقول عنها: إنهم عبروا سور نبوخذ نصر، وكان يمتد من مدينة أوبس Opis إلى سبار عام ٤٠١ ق.م، وقد وصلوا إلى نهر دجلة قرب مدينة ستاسا[١٨]. ويشير أيضاً إلى أَنّ هذه البقعة كانت أرضاً مكشوفة تمرّ بها قنوات المياه وضعت وكأنها واسعة وعميقة.

ووجد أثناء الحفريات عن ذلك السور المنسوب إلى الملك نبوخذ نصر، أَنّ سمكه يبلغ ٢,٨٠م، أي بمعدل ثماني طابوقات، مشيدة على مستوى واحد. ومن مواصفات الطابوقة، انها مشوية بدرجة حرارة عالية ومختومة بالختم العائد لذلك العاهل (٦٠٤-٥٦٢ ق.م). وهناك تفسير في بناء ذلك السور، مفاده أَن نبوخذ نصر بناه قريباً من مجرى الماء ، ليكون حاجزاً يحول دون غرق المناطق المحاذية للنهر، وفي الوقت نفسه ليكون حاجزاً لاستغلال مياه الفرات عند الحاجة إلى مياه لإرواء الأراضي التي تقع في وسط العراق وجنوبه[١٩].

ومن جانب آخر تؤكد دراسة للتغيرات الحاصلة على مجرى نهر الفرات والتواءاته[٢٠]، قام بها مختصون أَن نهر الفرات غيّر مجراه مرتين، ولاسيما في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من سبار، عند نقطة تقاطع نهر اليوسفية مع نهر الفرات[٢١].

وتشير الوثائق المسمارية إلى أَنّ ملوك العصر البابلي القديم (٢٠٠٤-١٥٩٥ ق.م) حرصوا على توفير المياه لأكبر مساحة زراعية ممكنة. فحفروا القنوات والترع والسواقي ، لضمان استمرار الأعمال الزراعية وتنظيمها، وكان ذلك بإشرافهم المستمر على تلك الأعمال المتعلقة بتنظيف القنوات وكريها لتخليصها من العوالق وسدّ الثغرات إنْ حدثت، وصيانة جوانب الأنهار والقنوات، لحفظ الضفاف من التآكل وجرف التربة[٢٢].

ذكرت الصيغ التاريخية لبعض ملوك العصر البابلي القديم قيامهم بحفر قنوات أُقيمت على نهر الفرات لتزويد أراضي مدينة سبار الزراعية بالمياه الوفيرة بدءاً من الملك سمولائيل[٢٣]. إذ حفر قناة أسوخي (Asuḫi)[٢٤]، وأرخ بها إحدى سنوات حكمه. وحفر سن مبلط في السنة الخامسة من حكمه قناة سين – مبلط[٢٥]، وقناة ايا خيكال (EA.HÉ.GAL)، وقناة زايو[٢٦]. وحفر حمورابي الملك[٢٧]، في السنة الثامنة من حكمه[٢٨] قناة يجهز بها مدينة سبار بالماء الوفير، وأسس البهجة لشعب سبار[٢٩]. وهذه القناة تأخذ مياهها من نهر الفرات، وتمدّ الخندق المحيط بمدينة سبار بالماء، إذ جاءت الصيغة التاريخية (أَعليت قمة سور سبار بالتراب مثل الجبل العظيم، وأحطته بخندق وحفرت مجرى نهر الفرات إلى سبار وأنشأت سداً لحمايتها منه)[٣٠].

كما قام الملك حمورابي بكري نهر الفرات من الطمى والنباتات للمنطقة بين مدينة سبار شمالاً والى مقربة من مدينة ايسن جنوباً، وأظهرت مراسلات الملك حمورابي لحكامه ولاسيما سين– ادنام، وشمش خازر متابعته الدقيقة والحازمة لتنفيذ مشاريع الري[٣١].

وهناك قناة أخرى سميت بقناة اراختوم (Araḫtum)، تفرعت عن الضفة اليمنى لنهر الفرات في موقع مدينة سبار[٣٢]. كما في الشكل (٣). فضلاً عن قناة أخرى عرفت باسم قناة الايتورونكال[٣٣] (Iturungal) وهي القناة الأخيرة التي تفرعت عن الضفة الشرقية لمجرى نهر الفرات[٣٤]. والتي أطلق عليها في الألف الثالث قبل الميلاد تسمية النهر، وقد وردت بصيغة (نهر سبار) [٣٥].

المسوحات الأثرية:

إلى جانب ما قدّمته لنا المصادر المسمارية عن قنوات المياه ومصادرها في مدينة سبار، فقد زودتنا المسوحات الأثرية أيضاً بمعلومات، لا تقل أهمية عن تلك التي ذكرتها المصادر المسمارية. وإذا تتبعنا ما نشر في هذا الباب، فإن بريطانيا وظفت جهودها في القرن التاسع عشر لعمليات المسح المتنوعة، مقرونة بحماس العمليات الخاصة بتثبيت المواضع الأثرية. وعن طريق هذه الجهود تم التعرف على أعمال جزني (F. R. Chesney) عام ١٨٥٠ ولوفتس W. K. Luftus عام ١٨٥٧. كما قام كل من سلبي وبوشر بين الأعوام ١٨٦٢–١٨٦٥ برسم مخطط عام لمدينة سبار. ويظهر المخطط المتبقي من آثار مجرى الماء الذي يبدو على شكل قوس، يمرّ بشمال مدينة سبار، أما إلى الغرب والشمال الغربي منها فتبدو بقايا مجرى قديم كان يجري باتجاه الجنوب[٣٦]. كما في الشكل (٤).

وتجدر الإشارة إلى أنّ المهندس السويسري كاش H. Casche وهو المنقب الرئيس في مدينة الدير الذي سبق له ان عمل مع روبرت آدمز (R. Adams) في انجاز بعض مراحل مسوحاته لوسط العراق وجنوبه ، قد رصد مايقارب من ٢٣٠ موقعاً أثرياً، يعود معظمها إلى الفترات المتأخرة من العهود الإسلامية، كانت الأراضي التي حول سبار والدير والى جنوبهما تسقى من القنوات المتفرعة من نهر الفرات[٣٧].

ونختتم البحث بأحدث ما أنجزته المسوحات الأرضية التي قام بها كل من Carrie Hritz and T. H. Wilkinson والمنشورة في مجلة Antiquity, 80(2006) 415-424.

شملت منطقة البحث في اليوسفية ومحيطها الجغرافي، باستخدام الموجات الرادارية، المطبقة على النتوءات الأرضية لأكتاف الأنهر والقنوات القديمة[٣٨].

الاستنتاج

يخلص البحث إلى أَنّ سبار (تل أبو حبة) والدير وكيش وكوثى نزولاً إلى المدن الأخرى الواقعة في قلب بلاد سومر، قد ارتبطت مع بعضها عبر قناة أو قنوات سبار. لتروي الأراضي الزراعية السهلية، البعيدة عن ضفاف النهرين العظيمين: دجلة والفرات. كما استخدمت القنوات هذه لتصريف المياه المتجمعة نتيجة الفيضانات السنوية. وبهذه العمليات يتم تفادي الإشباع المفرط بالرطوبة الذي يلحق الضرر الكبير بالأرض.

ومن جانب آخر تحدثت الوثائق المسمارية عن دلائل واضحة لجهود ملوك وحكام بلاد سومر وأكد وبابل في حفر وكري وإصلاح الأنهر والجداول. من أجل رفع المستوى الاقتصادي لسكان تلك البلاد، والحفاظ على رفاهيتهم.

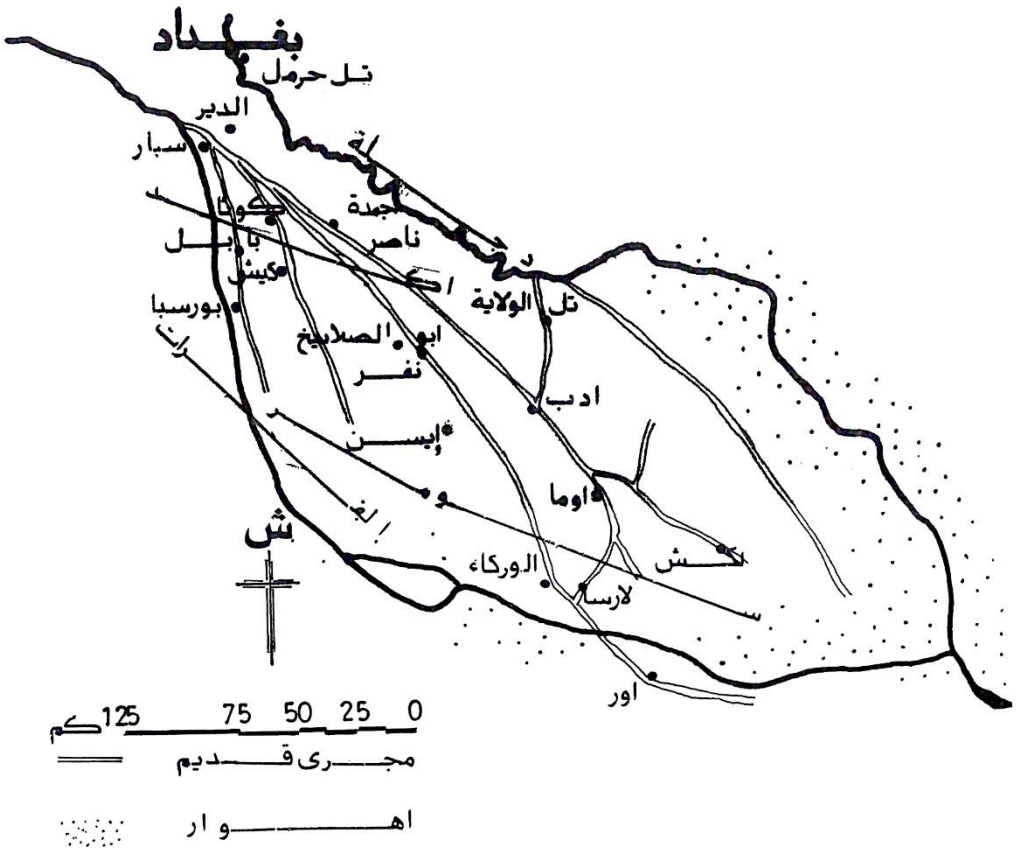

الشكل (١)

عن: الجادر، وليد، المصدر السابق.

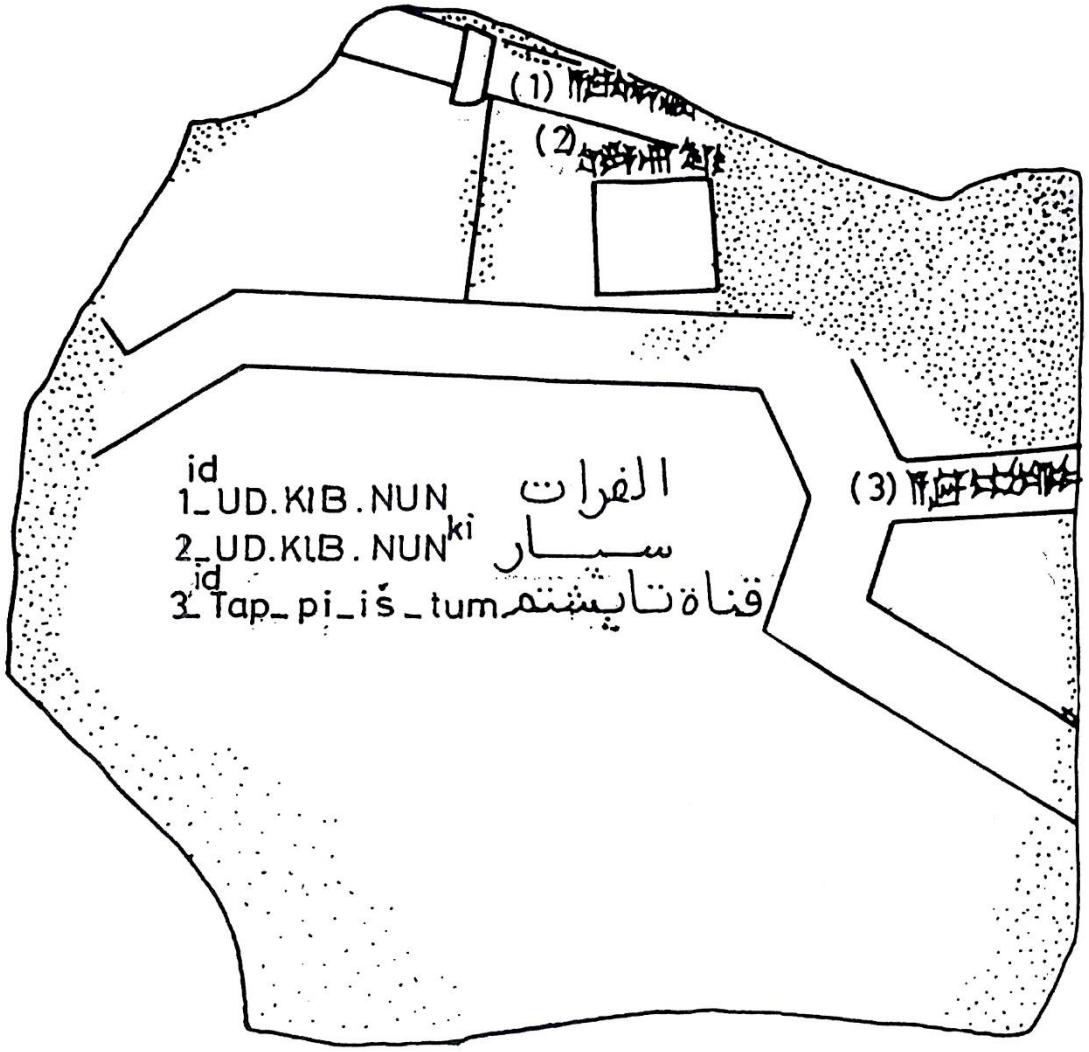

الشكل (٢)

عن: الجادر، وليد، المصدر السابق.

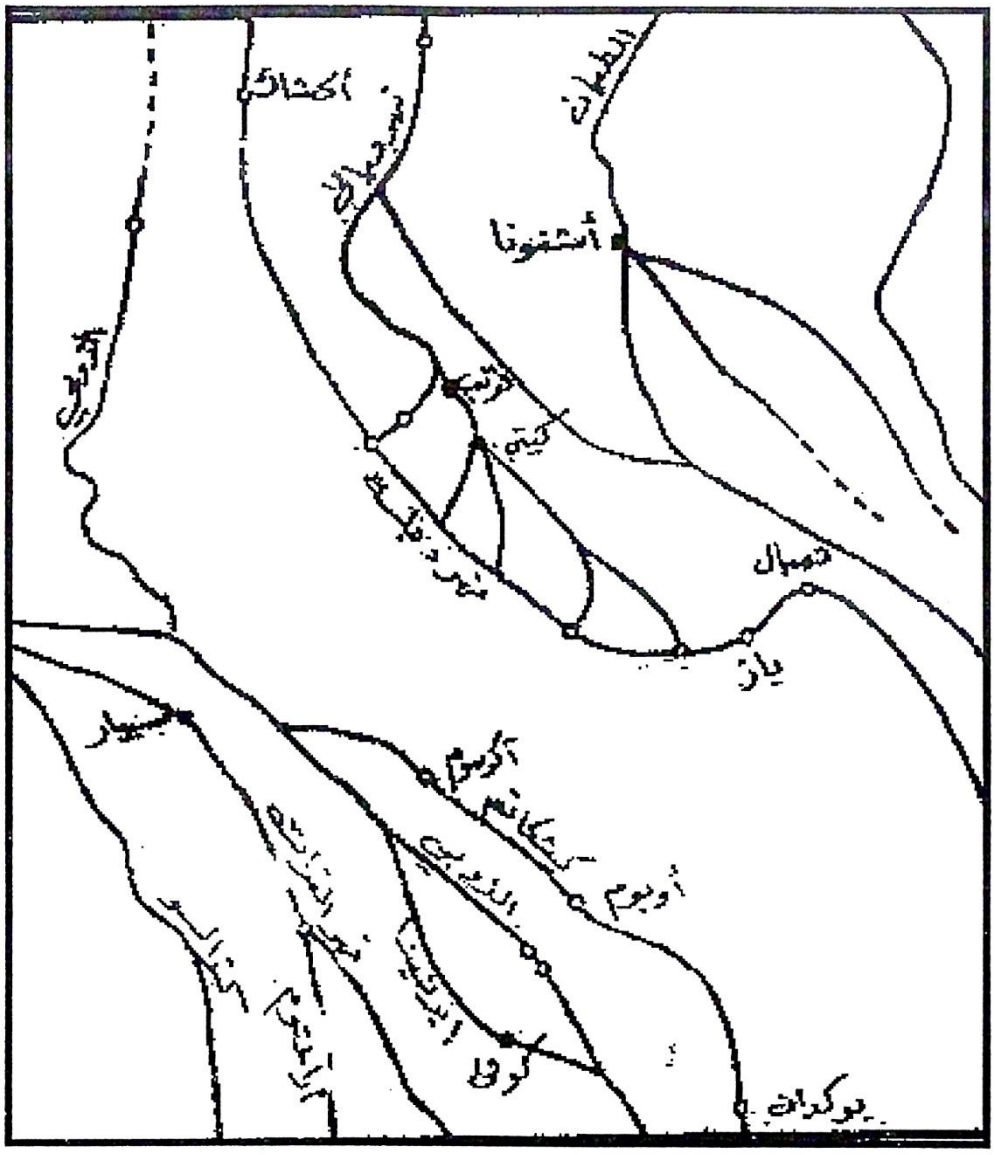

الشكل (٣)

عن: سالم، خولة، المصدر السابق.

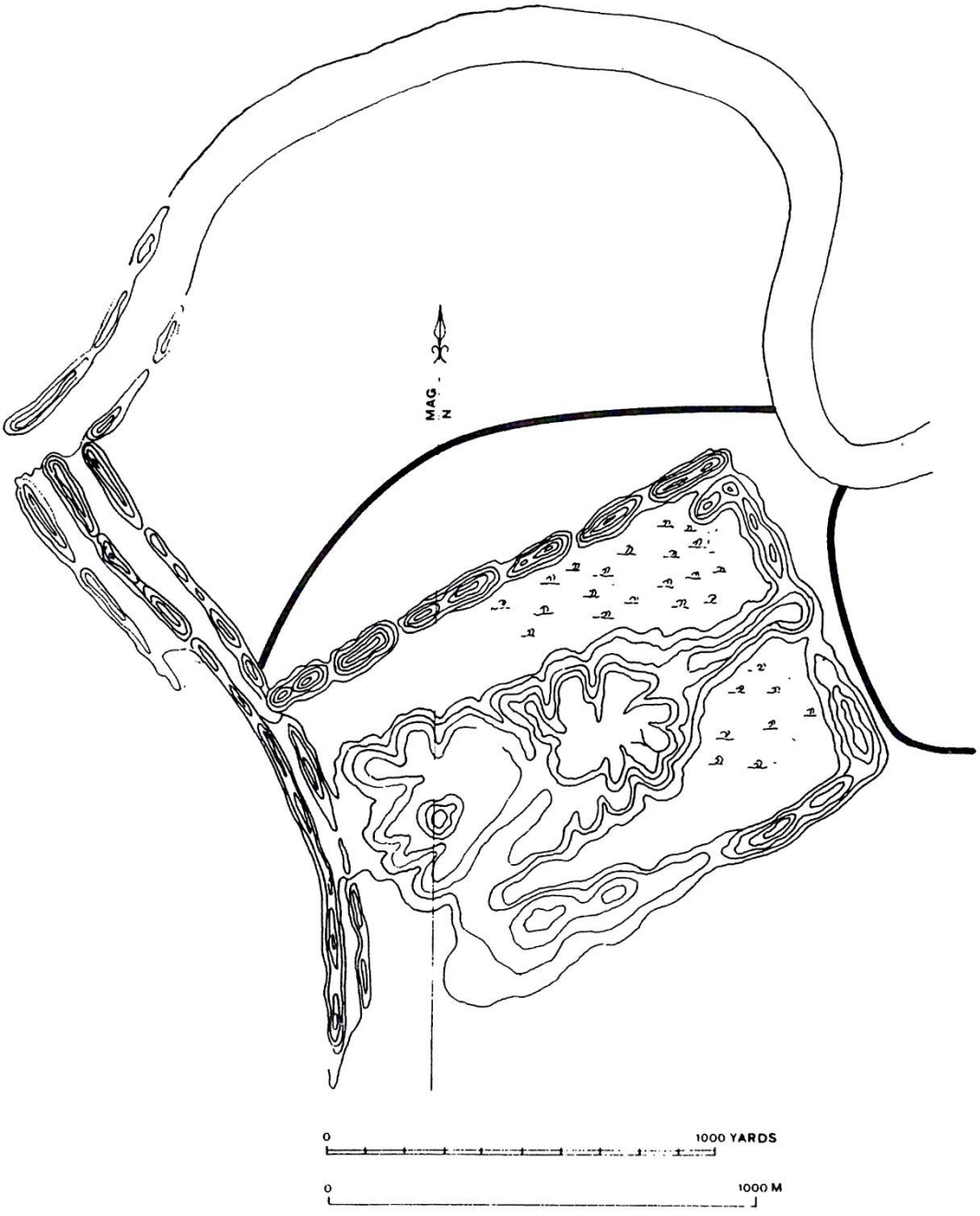

الشكل (٤)

عن: الجادر، وليد، المصدر السابق.

هوامش البحث:

ملاحظة: سأذكر هنا معلومات كاملة عن المصادر والمراجع عند ذكرها لأول مرة مما يغنينا عن اعداد جريدة للمصادر والمراجع.

(١) القره داغي، رافدة عبدالله عبد الصمد، نصوص مسمارية غير منشورة من سبار، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص١١.

(٢) الدير، مدينة أثرية واسعة المساحة تقع على نحو (٣٠) كم إلى الجنوب من مدينة بغداد. وهناك مدينة أخرى بالاسم نفسه، وتعرف اطلالها عند المحليين باسم (تلول العقر). للمزيد ينظر: بدح، سروالیس، رحلات إلى العراق، الجزء الثاني، ترجمة فؤاد جميل، بغداد، ١٩٦٨، ص١٥٧ وما بعدها. وعن مدينة الدير بالقرب من بدرة. ينظر: سفر، فؤاد، بدرة تاريخها وأهميتها الأثرية، مجلة سومر، مجلد ٧، ١٩٥١، ص٥٣.

(٣) الجادر، وليد، سبار، أحداث من تاريخ المدينة، بغداد، ١٩٨٨، ص٧-٨.

(٤) القره داغي، المصدر السابق، ص٦.

(٥) الجادر، المصدر السابق، ص٣.

(٦) القره داغي، المصدر السابق، ص١١.

(٧) الشمري، علي طالب منعم، المكانة الدينية والحياة الحضارية لمدينة سبار في العصر البابلي القديم ٢٠٠٤-١٥٩٥ ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ٢٠١٤، ص٤٧.

(٨) الجادر، وليد، المصدر السابق، ص٨.

(٩) المصدر السابق، ص٨.

(10) Karel Van Lerberghe, Old Babylonian Legal and Administrative Texts From Philadelphia Leuven, 1986, P. 49.

(١١) الجادر، وليد، المصدر السابق، ص٢٢.

(١٢) دلبات: الاسم القديم لمدينة تأريخية، طابقها الباحثون بموقع، واختلفوا في صيغتة اللفظية فهي (الديلم) في كتاب (المواقع الأثرية في العراق)، بغداد، ١٩٧٠، ص١٥٣، تسلسل ٢٣٢. و"دليهم" الكائنة على نحو ٤٠كم جنوب اطلال بابل، طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، بغداد ، ١٩٨٦، ص٤٦٩، هامش رقم (٢٨). و"دليم" في خارطة العراق الأثرية الصادرة عن مديرية الآثار العامة، بغداد. وبصيغة "ديلم" الواقعة على نحو ٢٧كم إلى الجنوب من مدينة بابل. ينظر:

(١٣) الجادر، وليد، المصدر السابق، ص١١.

(14) DE Meyer, L., Tell ed-Dēr III, Leuven, 1980, P. 6.

(١٥) هرمزد رسام: هو من سكان مدينة الموصل، وكان مساعداً للقنصل البريطاني، ومساعداً له في التنقيبات التي أجراها في العواصم الآشورية في الموصل عام ١٨٤٣، وفي المدن البابلية مثل سبار وبابل وكوثى، وألف كتابا اودع فيه نشاطاته الأثرية وهو:

Asshur and the Land of Nimrud, New York, 1897, PP. 397-404.

(١٦) الجادر، وليد، المصدر السابق، ص١١.

(١٧) باقر، طه وسفر، فؤاد، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الأولى، بغداد، ١٩٦٢، ص١٢-١٧.

(١٨) زينفون، حملة العشرة آلاف (الحملة على فارس)، ترجمة: يعقوب افرام منصور، الموصل، ١٩٨٥، ص١٣.

(١٩) سوسة، احمد، فيضانات بغداد في التاريخ، القسم الثاني، بغداد، ١٩٦٥، ص٣٩١.

(٢٠) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، المصدر السابق، ص٤٢.

(٢١) القره داغي، رافدة، المصدر السابق، ص٣.

(٢٢) المتولي، نوالة أحمد، مجاري الانهار القديمة في السهل الرسوبي في ضوء الوثائق المسمارية والمسوحات الاثرية، مجلة الآداب، العدد (٧٣)، بغداد، ٢٠٠٦، ص٧٠٩.

(٢٣) سمولائيل: الملك الثاني في سلالة بابل الأولى دام حكمه ٣٦ عاماً، خاض خلالها حروباً كثيرة مع دول المدن المجاورة. للمزيد ينظر: باقر، طه، المقدمة، المصدر السابق، ص٤٢٩.

(٢٤) القره داغي، رافدة، المصدر السابق، ص٢٥.

(٢٥) سين – مبلط: الملك الخامس في سلالة بابل الاولى، وهو أبو الملك الشهير حمورابي، حكم ٢٠ عاما، تعاظمت في اثنائها مملكة بابل، للمزيد ينظر: باقر، طه، المصدر السابق، ص٤٣٠.

(٢٦) القره داغي، رافدة، المصدر السابق، ص٢٥.

(٢٧) حمورابي: سادس ملوك العصر البابلي القديم، واشهر ملوكها، حكم ٤٢ عاماً للمدة من ١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م، للمزيد ينظر: بصمه جي، فرج، كنوز المتحف العراقي، بغداد، ١٩٧٢، ص٤١.

(28) Sigrist, Marcel and Damerow, Peter, Mesopotamian year Names, MYN, Maryland, 2001, P. 70.

(٢٩) العكيلي، فوزية، ذاكر عبد الرحيم، الدلالات الحضارية للصيغ التاريخية لممالك ايسن ولارسا وبابل في العصر البابلي القديم ٢٠٠٤–١٥٩٥ ق.م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، ٢٠١٤، ص٢٧٢.

(30) Gelb, I, A New Clay-Nail of Hammurabi, JNES, 7, 1948, PP. 269 f.

وكذلك، الاعظمي، محمد طه محمد، حمورابي ١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م، بغداد، ١٩٩٠، ص١٠٩.

(31) Fish, T., Letters of Hammurabi to Šamaš-ḫaṣir, MCS, 1, No. 1, 1951, P. 4.

(٣٢) سالم، خولة معارج خليل، مدن على نهر الايتورونكال في عهود السيطرة الأجنبية للعراق من ٥٣٩ ق.م وحتى ٦٣٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ٢٠٠٧، ص٥٤.

(٣٣) سوسة، احمد، الري والحضارة في وادي الرافدين، الجزء الأول، بغداد، ١٩٦٨، ص٢٣٦.

(٣٤) سالم، خولة، المصدر السابق، ص٥٥.

(٣٥) المصدر السابق، ص٦٦.

(٣٦) الجادر، وليد، المصدر السابق، ص٢٢.

(37) DE Meyer, L., Tell ed-Dēr III, Op. Cit., P. 21.

(38) Using Shuttle Radar Topography to map ancient water channels in Mesopotamia.